السلالم الحجاجية
في خطب الجهاد عند الإمام علي (عليه السلام)

أ.م.د. تغريد عبد الأمير الخفاجي
حسين مجيد سلمان

Argumentation in the sermons of jihad by Imam Ali (peace be upon him)

Prof. Dr. Taghreed Abdul Amir Al-Khafaji
Hussein Majeed Salman

ملخص البحث

إن للخطاب سلطة لغوية تضخم من إمكانات المتكلم الحجاجية في الوقت الذي تعمل على تعطيلها لدى المتلقي ليستجيب للطرح الذي ألقي عليه نظراً لقوة تلك العناصر الحاملة للأبعاد المعنوية المؤثرة في المحاجج، والتي تحمل في ذاتها قيمة حجاجية زيادة على دورها في شد انتباه المتلقي نحو هدف واحد.

فإن للسلالم الحجاجية أيضاً دوراً في تراكم الحجج أو تدرجها بحسب قوتها وبحسب السياق الذي يفرضه حال المتلقي، فقد يبدأ المتكلم بالحجج القوية أولاً نزولاً إلى الأضعف أو العكس؛ لأن ترتيب الحجج في السلم الحجاجي والمفاضلة بينها في القوة يعود إلى رؤية المتكلم فقد تنزل الحجة الواحدة إلى أسفل السلم تبعا لوجهة نظر معينة في حين ترتقي إلى أعلاه وفقاً لوجهة نظر أخرى، ومن هذا المنطلق جاء هذا البحث راسما الأبعاد الإقناعية التي صنعها السلم الحجاجي في خطب الجهاد عند الإمام علي (عليه السلام)، وبيان كيفية تأثير السلم الحجاجي في مسار الإقناع في الخطاب وتوجيهه نحو التأثير والإقناع بما يلبي الغاية المنشودة من الخطاب الجهادي، فقد احتوت خطب الجهاد للإمام علي (عليه السلام) سلالم حجاجية جعلت الخطاب متدرجًا بحسب سياق الخطاب وحال المخاطَب.

الكلمات المفتاحية: الإمام علي (عليه السلام)، خطب الجهاد، الحجاج، السلالم الحجاجية

Abstract

Discourse has a linguistic authority that strengthens the speaker›s argumentative potential while disabling it in the recipient so that he responds to the proposal that he has presented to him due to the strength of those elements that carry the moral dimensions that influence the argument, and which carry in themselves an argumentative value in addition to their role in drawing the recipient›s attention towards one goal.

Argumentative ladders also play a role in accumulating or grading arguments according to their strength and the context imposed by the recipient›s condition. The arrangement of arguments in the argumentative ladder and the comparison between them in strength depends on to the speaker's perspective; one argument may descend to the bottom of the ladder according to a certain perspective, while it rises to the top according to another. From this standpoint, this research came to draw the persuasive dimensions that the argumentative ladder created in the jihad sermons of Imam Ali (PBUH), and to show how the argumentative ladder affects the path of persuasion in the speech and directs it towards influence and persuasion in a way that fulfills the desired goal of the jihadist speech. The jihad sermons of Imam Ali (PBUH) contained argumentative ladders that made the speech gradual according to the context of the speech and the state of the addressee. The top of the argumentative ladder descends towards weak arguments when the recipient has denial or doubt. This is known as the descending argumentative ladder. Sometimes the speech requires starting with weak arguments and moving up to strong arguments if the recipient has no doubt or denial, which is known as the ascending ladder of arguments. Sometimes the gradation in the argumentative ladders comes in an accumulative manner according to the requirement of the context and the condition of the recipient.

Therefore, this research is devoted to investigating and analyzing the argumentative ladders included in the jihad sermons of Imam Ali (PBUH), explaining how the argumentative ladders work to add a persuasive argumentative feature to the jihadist discourse and tend towards influencing and convincing the necessity of jihad for the sake of Allah.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين نحمده ونستعينه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ونسأله التوفيق فيما نأتي ونذر، وصلى الله على نبينا محمد أمين الله على رسله، وعزائم أمره، الخاتم لما سبق، والفاتح لما استقبل، والمهيمن على ذلك كله، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين.

وبعد..

يعد الحجاج عنصرًا مهمًّا من عناصر النظرية التداولية، لما له من أهمية فعالة في صياغة الخطاب بأسلوب إقناعي قادر على التأثير في المقابل بغية إقناعه بفحوى الخطاب، فقد كانت غاية النظرية الحجاجية تدور حول المتلقي لأجل تحقيق التأثير والإقناع فيه واستمالته لما يعرض عليه عبر أساليب وآليات حجاجية إقناعية.

لقد برزت أهمية الحجاج في الدراسات العربية القديمة والحديثة، فقد شرع أغلب الباحثين في دراسته وتطبيقه على النصوص والخطابات، وقد شاع استعماله منذ البدء في الدفاع عن المذهب والعقيدة وفي الانتصار للآراء واختلاف وجهات النظر وأيضا شاع استعماله بين القادة والخطباء لجذب الناس والتأثير فيهم، لذا فقد ابتعد الحجاج في دراسته عن الفلسفة وإنما يعمل في مجال البلاغة والدلالة لقدرته على تكوين دلالة النصوص لدى المتلقي، فقد كان في البدء متداخلًا مع مفهوم الجدل إلى إن أصبح مستقلًا عنه بفضل أدوات تحليل الخطاب التي يتمتع بها الآليات والأساليب الإقناعية التي تكون قادرة على إبعاد أي شك أو ريب أو إنكار من المنطق والعقل لكي يصل إلى غايته المنشودة في تقوية حجة الخطاب وبرهانه.

ومن أساليب الحجاج وتقنياته الإقناعية التي تسهم بشكل كبير

في تقوية حجة الخطاب هي السلالم الحجاجية أو ما يعرف بالتدرج الحججي بحسب السياق الذي يفرضه الخطاب، فمرة يقتضي الخطاب أن يقوم المتكلم بإيراد الحجج القوية في أعلى السلم الحجاجي نزولا نحو الحجج الضعيفة إذا كان لدى المتلقي إنكارٌ أو شك وهو ما يعرف بالسلم الحجاجي التنازلي، ومرة يقتضي الخطاب البدء بالحجج الضعيفة صعودا نحو الحجج القوية إذا كان المتلقي ليس لديه أي شك أو إنكار وهو ما يعرف بسلم الحجج التصاعدي، وأحيانا يأتي التدرج في السلالم الحجاجية بشكل تراكمي بحسب ما يفرضه سياق الخطاب وحال المتلقي، لذلك اختص هذا البحث بالتقصي والتحليل للسلالم الحجاجية المضمنة في خطب الجهاد عند الإمام علي (عليه السلام) وبيان كيفية عمل السلالم الحجاجية على إضفاء سمة حجاجية إقناعية في الخطاب الجهادي وتنحو به نحو التأثير والإقناع بضرورة الجهاد في سبيل الله.

وأخيرا لم يخلُ هذا البحث من الصعوبات والعوائق ولكن توفيق الله وعطاءه كان في مقدمة الطريق لتسهيل تلك الأمور، فالشكر لله تعالى أولا، ولمشرفتي الدكتورة تغريد الخفاجي لتقديمها النصائح والإرشادات لي، وأسأل الله التوفيق لما يحبه ويرضاه إنه سميع مجيب.

السلالم الحجاجية:

يعدُ التدرج في الكلام من أكثر ما يميز الخطاب الحجاجي، ويجعل الحجج محققة مداها الأبعد نحو المطلوب، ومن هذا المنطلق جاء البحث راسما الأبعاد الإقناعية التي صنعها السلم الحجاجي في خطب الجهاد عند الإمام علي (عليه السلام).

إن ما يبتغيه المتكلم من خطابه هو جعل الطرف الآخر آخذاً بما أملاه عليه من حجج تحقق له النتيجة التي

يرمي إليها،؛ لذلك يسعى إلى ترتيب حججه بصورة تدريجية إما صعوداً وإما نزولاً وأحياناً تراكما بحسب السياق الذي يفرضه المقام، فبسبب اختلاف وجهات النظر لدى المتكلمين يختلف بناء السلالم الحجاجية، فقد يبدأ المتكلم بالحجج القوية أولاً نزولاً إلى الأضعف أو العكس؛ لأن ترتيب الحجج في السلم الحجاجي والمفاضلة بينها في القوة يعود إلى رؤية المتكلم فقد تنزل الحجة الواحدة إلى أسفل السلم تبعا لوجهة نظر معينة في حين ترتقي إلى أعلاه وفقاً لوجهة نظر أخرى حيث يمكن ترتيب هذه الحجج بالنظر إلى طبيعتها بشكل يعلو بعضها على بعضها الآخر أو العكس حينما تستدعي نتيجة معينة، وهذا نابع من قوتها التي تتفاوت من حيث التبليغ والتأثير[١].

وقد عد أحد الباحثين هذا التدرج في السلم تدرجًا منطقيًا يسهم في نفي الخضوع لمنطق الصدق والكذب، في حين أكد العزاوي أن أبرز سمات الحجج اللغوية هي أنها نسبية وقابلة للإبطال، فالحجاج اللغوي ليس كالمنطق الرياضي والبرهان الذي تكون نتائجه حتمية مطلقة بل هو حجاج تدرجي يحكمه السياق[٢].

وفي هذا التدرج تكمن أهميته التي "يقوى عبرها الخبر أو يخرج بمقتضاها القول من مقام الخبر إلى مقام الحجة"[٣] فهذه التدرجية في الخطاب غالباً ما تظهر في مواقف المرسل واتجاهاته عبر الملفوظات النصية، فبالنتيجة تترتب هذه الحجج بناء على تنظيم الأقوال التي سبقت النتيجة "لتكون الأقرب إلى النتيجة المقصودة من الخطاب"[٤].

يتخذ التسلسل الحجاجي الصور الآتية:

أ- سُلم الحجج التصاعدية:

على وفق هذا النوع من السلالم الحجاجية، فإن المتكلم يبدأ بإيراد حججه تصاعديا أي من الحجة الضعيفة فالقوية ثم الحجة الأقوى، بمعنى أن الحجج في هذا النمط من السلالم يمكن تصنيفها بأنها نوع من مؤكدات الخطاب لأن الغاية وراء استعمال هذا النوع من الحجاج هي السعي إلى ترسيخ دلالة هذه الحجج في ذهن المخاطب، وبما أن الحجاج ينطلق من أسفل السلم ف "غالباً ما تكون الحجة الأولى المطروحة في الخطاب مهيئة للمتلقي ومحفزة لذهنه على التواصل والمتابعة لما سيأتي بصورة تصاعدية على وفق قوتها لاستمالة المتلقي وإذعانه "[٥] وهذا ما لوحظ في بعض خطب الإمام علي (عليه السلام) الهادفة إلى تسليم المتلقي بهذه الحجج والأخذ بها، ومن ذلك خطبة الإمام علي (عليه السلام) حين بلغه مقتل محمد بن أبي بكر، فحزن عليه حتى رئي ذلك في وجهه، وقام في الناس خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال: " ألا إن مصر قد افتتحها الفجرة أولو الجور والظلم..... وأني قد دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة، فتجرجرتم جرجرة[٦] الجمل الأشدق، وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من ليس له نية في جهاد العدو، ولا اكتساب الأجر، ثم خرج إلي منكم جنيد متذائب[٧] كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، فأف لكم..... "[٨].

فبدأ الإمام يطرح حججه الواحدة تلو الأخرى تصاعديا مستعيناً ببعض الروابط التي توجه تلك الحجج من قبيل (الفاء-الواو-ثم-إنما) حيث يلوم ويوبخ الناس لعدم نصرة إخوانهم من أهل مصر وتقاعسهم عن القتال، ونتيجة ذلك قُتل عامل الإمام علي (عليه السلام) محمد بن أبي بكر، كل ذلك بأسلوب تدرجي تقدم فيه

الحجج بشكل متسلسل على مستوى الأحداث، ولو وضعنا تلك الحجج في السلم تكون بالشكل الآتي:

- فإف لكم
- كإنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون
- ثم خرج إلي منكم جنيد متذائب
- وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من ليس له نية في جهاد العدو ولا اكتساب الأجر
- فتجرجرتم جرجرة الجمل الأشدق
- دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة

حيث بدأ ب (دعوتكم) وهي الحجة الواقعة في أسفل السلم التي أدت إلى فعل (تجرجرتم) بواسطة الرابط (الفاء) ثم جمعت معها بالرابط (الواو) الحجة (وتثاقلتم إلى الأرض) ثم بعد زمن يسير (خرج إلي منكم جنيد متذائب) حيث ربطت هذه الحجة بما قبلها بواسطة (ثم) التي دلت على التراخي، والتي قادت مباشرة إلى ما بعدها (يساقون إلى الموت وهم ينظرون) المسبوقة ب (إنما) التي خدمت الحجة بدلالتها على القصر فهي تنفي ما قبلها وتثبت الحجة التي بعدها، فكانت أقوى من الحجة التي سبقتها، فالحجة التي ترد بعد الرابط أقوى من الحجة التي قبله ليكرر استعمالها متصاعدا في الحجج ليصل في النهاية إلى قوله (فأفٍ لكم) الذي سبق بالفاء بدلالتها على الترتيب مع التعقيب لتمثل الحجة الأكبر والدليل الأقوى على انزعاج الإمام علي(عليه السلام)من الناس وغضبه عليهم لعدم نصرتهم إخوانهم من أهل مصر وتقاعسهم عن القتال.

وفي كلام للإمام علي (عليه السلام) في خطبته الجهادية بعد أن أغار سفيان بن عوف الغامدي[٩] على الأنبار و قتل عامل الإمام علي(عليه السلام) عليها وهو حسان بن حسان البكري[١٠]، ونهبوا أموالها حيث قال:

"لقد ملأتم قلبي قيحا، وشحنتم صدري غيظا، وجرعتموني نغب التهمام أنفاسا،وأفسدتم علي رأيي بالعصيان و الخذلان، حتى لقد قالت قريش : إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب....."[١١].

حيث أنتج الخطاب سلما تصاعديا رتب بالشكل الآتي:

- ولكن لا علم له بالحرب
- إن ابن أبي طالب رجل شجاع
- حتى لقد قالت قريش
- أفسدتم عليَّ رأيي
- جرعتموني نغب التهمام[١٢]
- شحنتم صدري غيظا
- ملأتم قلبي قيحا

يعبر الإمام علي (عليه السلام) في هذا النص الحجاجي عن استيائه وسخطه من القوم، وقد جاء بأسلوب تدرجي يبتغي منه تعريف الناس بشدة سخطه عليهم من تقاعسهم.

ويبدأ أمير المؤمنين(عليه السلام) بعد ما أصابه من أذى بسبب تخاذلهم عن الجهاد بـ(ملأتم قلبي قيحا) منتقلًا إلى الحجة الثانية (شحنتم صدري غيظا) ثم الثالثة (جرعتموني نغب التهمام أنفاسا) وبعدها الحجة الرابعة بواسطة (الواو) التي تجمع "بين حجتين لهما نفس التوجه الحجاجي"[١٣] ومنها وصل إلى أعلى السلم بواسطة الرابط (حتى الغائية) التي تعد من أدوات السلم الحجاجي و تتسم الحجج الواقعة بعدها بأنها الأقوى، وبذلك وصل إلى غايته من خطابه حيث نقل للمتلقي أن قريشًا تناولته بسبب تقاعس أصحابه عن الجهاد وعدم طاعتهم لأوامره.

ولأن الحجاج يقوم على حسن اختيار الحجج و صوغها وتنظيمها و إلقائها،فإن تنظيم الحجج على وفق هذا المسار التصاعدي يمنح المتكلم الحيز الأكبر لكسب رضا مخاطبه لأنه يعمل على صوغ حججه ابتداء من الأضعف

ما يجعل مخاطبه متلهفا لسماع أقوى الحجج وصولاً إلى الحجة الأخيرة التي تستقر في أعلى السلم.

وهذا ما شوهد في خطب الإمام علي (عليه السلام) حيث كانت ردود أفعال متلقيه مائلة باتجاه التسليم، إذا لم نقل مسلمة.

ب- سُلم الحجج التنازلية :

هذا النمط يسير على خلاف النمط الأول، حيث يبدأ المتكلم بطرح حججه تنازليا، أي: بدءاً من الحجج الأقوى وصولاً إلى أضعف حجة في سلم الخطاب، والمحاجج كثيراً ما يلجأ إلى هذا النمط من السلالم عندما "يشعر أن البدء بالحجج الضعيفة قد يواجه رداً من المتلقي بحجج أقوى، لذلك يبدأ كلامه مدافعاً عن الوجهة التي يريد"[١٤] وهذا ما يقيد المتلقي ويحجم عليه باب النقاش ويجعله آخذاً بطريق القبول لما قاله المحاجج ولاسيما إذا كان هذا المتلقي خصماً أو من النوع الجاحد أو الشاك الذي لا تجدي معه البدايات بالحجج الضعيفة.

لذلك يميل الإمام علي (عليه السلام) إلى استعمال هذا النوع من الخطاب عندما حضَ الناس وأمرهم بالمسير إلى صفين لقتال أهل الشام، فقال: «سيروا إلى أعداء الله. سيروا إلى أعداء السنن والقرآن. سيروا إلى بقية الأحزاب،قتلة المهاجرين والأنصار»[١٥] فترتيب الحجج بشكلها التنازلي واضح في الخطاب، وأيضاً يوضحها السلم الآتي:

أعداء الله

أعداء السنن و القرآن

بقية الأحزاب

قتلة المهاجرين والأنصار

فيبدأ الإمام بالحجة الأعلى المتمثلة ب(أعداء الله) التي بدورها أدت إلى (أعداء السنن و القرآن) فتأتي بعد ذلك الحجة الثالثة (بقية الأحزاب) ثم الحجة الأخيرة في السلم (قتلة

المهاجرين والأنصار)فترتيب الحجج بحسب أهميتها و قوتها جاء ليشعل نار الحمية في قلوبهم، فالإمام(عليه السلام) يعلم مدى إيمان أتباعه بالله عز وجل،والقداسة والمنزلة التي يحتلها القرآن في قلوب المخاطبين، لذلك جاءت هذه الحجج متتالية تنازليا ليكون المتلقي ملبيا لما يسمع، ولاشك عنده أو رد ليخالف ثم تلتها الحجج الأخرى لتحقق النتيجة المطلوبة.

وخطب الإمام علي (عليه السلام) في موقع آخر أيضاً يحض الناس على القتال، إذ قال: "إيمان بالله و رسوله، وجهاد في سبيله؛ وجعل ثوابه مغفرة الذنوب، ومساكن طيبة في جنات عدن، و رضوان من الله أكبر، فأخبركم بالذي يحب،فقال: «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص».[١٦]

فكان ترتيب الحجج بشكلها التنازلي يوضحه السلم الآتي :

- إيمان بالله
- ورسوله
- وجهاد في سبيله
- وجعل ثوابه مغفرة
- ومساكن طيبة
- ورضوان
- فأخبركم

فيبدأ الإمام عليه السلام بالحجة الأعلى المتمثلة ب (إيمان بالله) التي ألحقت بها (ورسوله) والتي أدت إلى (جهاد في سبيله) وتتوالى الحجج حتى تصل إلى الحجة (رضوان من الله أكبر) على وفق تنقل بين سابقتها بواسطة (الواو) التي لا تفيد فقط مطلق الجمع بل تفيد الترتيب،وصولا إلى الحجة الأخيرة في السلم (فأخبركم) المسبوقة بالفاء، وهي ككل أدوات الربط الحجاجية تستثمر دلاليا في "ترتيب الحجج ونسجها في خطاب واحد متكامل، إذ تفصل مواضع الحجج، بل وتقوي

كل حجة منها الأخرى"[١٧]،حيث تسهم بالضغط النفسي على المتكلم وتكثف الحجج عليه، ومن ثم تزيد من درجة اقتناعه،فكان هذا التوالي في ترتيب الحجج من جانب الإمام علي (عليه السلام) لمخاطبيه لتشجيعهم وتحفيزهم على الجهاد، ولذلك جاء عليه السلام بالشاهد ليؤكد ما ذهب إليه من حجة، فالله يحب المجاهدين المقاتلين في سبيله، و حضور الشاهد القرآني في الخطاب بقوله تعالى :" إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص"[١٨] في درج الحجج أسهم في منحها القوة والمصادقة نظراً للبعد السلطوي الذي يتميز به هذا النص، والذي شد من كثافة الحجج المتدرجة في الخطاب حتى بات من الصعب إنكارها.

ولما تحويه الحجة الأقوى من رصانة و مصداقية، وما لها من أهمية في ردع كل من يشك أو يتردد في حجج الطرف الآخر، لذلك يجعلها المحاجج في مثل هذه المواضع في أعلى درجات الكلام لما تحققه من إذعان و مقبولية يجعل ما بعدها مسلماً به من دون شك، وهو ما عمل به الإمام علي (عليه السلام) في خطبه الجهادية.

ج- سُلم الحجج التراكمية:

يتمثل الحجاج في هذا النوع من السلالم عندما تتعدد فيه الحجج و تتراكم من دون مراعاة لمبدأ التدرج من الأقوى إلى الأضعف أو العكس، ومن دون مراعاة التفاوت الحاصل في القوة التدليلية لتلك الحجج فكل حجة تكون أقوى و أكثر فاعلية في اللحظة التي تستعمل فيها، وهو أكثر عفوية وتلقائية من النوعين السابقين، فالحجج المنتمية لهذا النوع من السلالم "تزدحم متخذة نوعاً من الاستقلال لكل حجة، وما يدل على ذلك أن نقض أي حجة من تلك الحجج، يؤدي إلى نقض الحجة التي تليها أو تسبقها"[١٩]

وبعد التدقيق في خطب الجهاد للإمام علي(عليه السلام) لوحظ أن هذا النوع من السلالم غالباً ما تشكله آليات ثلاث وهي: التكرار و الوصف والنفي.

أ- التكرار:

انطلق الحجاجيون في عدَ التكرار آلية حجاجية تعين على الإقناع نظراً لدلالته النحوية فهو "دلالة اللفظ على المعنى مرددا"(٢٠) أي إنه يدل على إعادة اللفظ أو المعنى في الكلام لإحراز فائدة التأكيد و الترشيح،لذلك عد رافداً فاعلاً في العملية الحجاجية، فهو يوفر للحجج طاقة مضاعفة تؤثر في المتلقي تأثيراً واضحاً، وتعين على إقناعه وجعله يسلم بما يقوله المتكلم؛ لأنه بالدرجة الأولى يساعد على تبليغ المخاطب و إفهامه قصد المحاجج من كلامه، وبالدرجة الثانية يؤدي إلى ثبوت الفكرة وترسيخها في ذهنه، فإذا بدأ المحتج بتكريره لحاجته فإنه يقود إلى بيان مقاصدها وإدراك مراميها وتصبح واضحة جلية لدى المتلقي فتنحو به نحو القبول.

ونموذج على ذلك خطبة الإمام علي (عليه السلام) عندما أغار سفيان بن عوف الغامدي على الأنبار، يحث الناس فيها على الجهاد، إذ قال في مجرى خطبته : " تُرمون ولا تَرمون، ويُغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزونَ ولا تَغزونَ "(٢١).

النص بأكمله يشير إلى كثافة لغوية خيم عليها أسلوبا التكرار والنفي ليكونا سلماً تراكميًا ذا وظيفة إقناعية تميل نحو جعل المخاطب لا يمتلك إلا أن يسلم بما ألقي عليه، فالتكرار باستعمال الفعل المضارع و(لا) النافية مثل (يغار عليكم ولا تغيرون) أعطى النص قدرة على ترسيخ الفكرة لدى المتلقي، و إن دل ذلك على شيء إنما يدل على البعد المقامي الذي يتمتع به الإمام علي(عليه السلام) والذي لا

يجهله عاملوه، فهذا التكرار بنمطه الأسلوبي المؤثر "عمق جذور المنشئ الأصيلة بالشكل الذي لا يكون فيه للمتلقي أدنى شك للتشكيك في سعي المنشئ و قصده"[٢٢]، فالتكرار لم يكن لغاية اعتباطية بل لغاية حجاجية إذ إن ذلك الترديد الذي يحدثه المرسل في خطابه، ينتج عنه زيادة في حضور الفكرة في ذهن المتلقي، الأمر الذي يؤدي إلى قبول تلك الفكرة، والإقتناع بها.

والتكرار عندما يكون بهذه الفاعلية كما ورد يقصد به التكرار المبدع الذي يكون ضمن بنية النص أو الكلام بشكل عام، وهو ما يعمل على عدم رفض المتلقي للرأي الذي يطرح عليه بل يميل به نحو القبول.

إذن يعد التكرار موجها حجاجيا يضطلع بدور إقناعي مؤثر في القول نظراً لأنه أسلوب يتجاوز "وظيفة الإخبار والإبلاغ إلى وظيفة التأثير و الإقناع، وهي وظيفة تنتج عن التكرار بما يثير من دلالات الإلحاح والمبالغة في التأكيد بل تدفع بعض حالات التكرير إلى تغيير سلوك المخاطب"[٢٣]، و من هذا المنطلق الذي يسهم فيه التكرار بمضاعفة توكيد الحجة وكثافة توجيهها، بات من أبرز الآليات التي تزيد النص الحجاجي توجيها وإقناعا.

ب- الوصف:

يؤدي الوصف دوراً مهماً في عملية الإقناع، فالصفة تنهض بدور حجاجي يعبر عن وجهة نظر المتكلم عن الموضوع، وليس ذلك فحسب، فالصفة تأتي لتبين موقف المرسل الذي يحكم به على الموصوف، فهي تعد من الأدوات التي تمثل حجة للمرسل في خطابه وذلك بإطلاقه نعتاً معيناً في سبيل إقناع المرسل إليه، لذلك عدت الصفات بأنواعها المختلفة من أكثر أقسام الكلام تعبيراً عن السُلَّمية

بمعنى أن "الصفة التي ترد في أسفل السلم الحجاجي هي أقل الصفات قياما بالدور الإقناعي في حين تكون الصفة الواقعة في أعلى السلم أكثرها توجيها للملفوظ، وبالتالي أكثرها حجاجية"[٢٤]

ومن أمثلة هذا النوع من السلالم ما ورد في خطبة الإمام علي (عليه السلام) في صفين لما رأى ميمنته قد عادت إلى موقفها ومصافها وكُشف من بإزائها حتى ضاربوهم في مواقفهم ومراكزهم، أقبل حتى انتهى إليهم،إذ قال: " إني قد رأيت جولتكم وانحيازكم عن صفوفكم، يحوزكم الجفاة الطغام[٢٥] وأعراب أهل الشام وأنتم لهاميم[٢٦] العرب، والسنام الأعظم، وعُمار الليل بتلاوة القرآن، وأهل دعوة الحق إذ ضل الخاطئون"[٢٧].

تنطلق المحاججة في هذه الخطبة بتعداد صفات المقاتلين من أتباع الإمام علي (عليه السلام) وذلك من أجل تحفيزهم وشد همتهم للقتال بعد ما رأى من جولاتهم في الحرب، فقد وصفهم بأنهم (لهاميم العرب، والسنام الأعظم، وعُمار الليل بتلاوة القرآن، وأهل دعوة الحق) لذلك جاء تعداد هذه الأوصاف بصورة تراكمية، لتبدو أكثر إقناعا، وقد سبق هذه الأوصاف الرابط (الواو) الذي يفيد الترتيب والجمع بين الحجج والذي يعطي ميزة حجاجية للخطاب داخل السلم الحجاجي، فهو يكرر حرف العطف (الواو) وكأن فيه دلالة حجاجية تفيد بأن أتباعه قد جمعوا كل تلك الصفات الحميدة، فهذا التكرار والترديد للصفات أسهم في صنع سلم تراكمي في كلام الإمام (عليه السلام)، فكل حجة من هذه الحجج الواردة تمثل بنية مستقلة بذاتها وحجة دافعة تدعو المتلقي لاتباع المحاجج، فالحجج الآتية شكلت كثافة تدليلية جعلت كل واحدة منها أشد تأثيراً و أكثر حضوراً

لحظة النطق بها:

- أنتم لهاميم العرب
- والسنام الأعظم
- وعمار الليل بتلاوة القرآن
- وأهل دعوة الحق

وعليه تعد الصفات أدوات في الفعل الحجاجي، ومن العلامات الدالة عليه، فدور المرسل لا يقتصر على توظيف المعنى المعجمي لها أو تأويله في خطابه، بل لا بد من تصنيفها وتقويمها وإبداء النتائج التي يريد الحصول عليها، وهذا ما يجعلها تمتاز بالطواعية والمرونة التي تعد من خصائص الخطاب في العملية الحجاجية لتجعل المرسل يصنف لأكثر من فعل، و يوجه ذهن المتلقي إليه ليصل إلى مرتبة من الإقناع والتأثير.

ت- النفي:

يعد من العوامل التي أدت غرضها الحجاجي الفاعل في خطب الإمام علي (ع)، وهو شائع الاستعمال في هذا النوع من السلالم، فهو يشكل مع التكرار والوصف سُلماً تراكميا يعمل على إبطال ما لدى المتلقي من حجج، مع ملاحظة أن هذه الآليات قد تجتمع أو تتفرد أو يجتمع اثنان منها فقط في السُلم الواحد.

وتتراكم الحجج القائمة على الوصف والنفي في خطبة الإمام علي (عليه السلام) حين بلغه مقتل محمد بن أبي بكر، يحث الناس فيها على القتال، إذ قال : " وأناديكم نداء المستغيث معربا، فلا تسمعون لي قولا، ولا تطيعون لي أمرا، حتى تصير بي الأمور إلى عواقب المساءة، فأنتم القوم لا يدرك بكم الثأر، ولا تنقض بكم الأوتار"(٢٨).

فنلحظ أن الإمام عليًّا (عليه السلام) في هذه الخطبة يوجه كلامه للمتخاذلين عن نصرة إخوانهم من أهل مصر وتقاعسهم عن القتال وعدم طاعتهم لأوامره، مصدرا حججه ب (لا) الدالة على تحقيق النفي مسبوقة ب

(الفاء) الدالة على الترتيب والتعقيب في قوله (فأنتم القوم لا يدرك بكم الثأر)، ويعقب (لا) النافية فعل مضارع لينفي القيام بها، كذلك توسط الرابط (حتى الغائية) بين سلم الجمل المنفية لأن الحجة التي بعدها تكون الأقوى، فنلحظ كيف تدرج سلم الحجج التراكمية من دون ترتيب، حيث نجد أن كل حجة مستقلة عن غيرها وهذه ميزة حجاجية إقناعية تضاف للسلالم الحجاجية، وإن لهذا التكرار اللفظي بهذه الأشكال المختلفة وقعاً في القلوب وأثراً بليغاً في الأسماع والأذهان، من أجل أن يقوم الناس ويهبوا لنصرة إخوانهم من أهل مصر، فقد عمل الإمام علي (عليه السلام) على تأنيبهم وتوبيخهم بواسطة نفي القيام بالأعمال التي أمرهم بها عبر سلم حجاجي تراكمي، ويمكن رسم تلك الحجج بالشكل الآتي مع إمكانية أن تأخذ الواحدة منها مكان الأخرى :

- أناديكم
- لا تسمعون
- لا تطيعون
- حتى تصير بي الأمور
- لا يدرك بكم الثأر
- لا ينقض بكم الأوتار

الخاتمة:

نستنتج مما سبق:

١- تبين أن للخطاب سلطة لغوية تضخم من إمكانات المتكلم الحجاجية في الوقت الذي تعمل على تعطيلها لدى المتلقي ليستجيب للطرح الذي ألقي عليه نظراً لقوة تلك العناصر الحاملة للأبعاد المعنوية المؤثرة في المحاجج، والتي تحمل في ذاتها قيمة حجاجية زيادة على دورها في شد انتباه المتلقي نحو هدف واحد.

٢- للسلالم أيضاً دورٌ في تراكم الحجج أو تدرجها بحسب قوتها وبحسب السياق الذي يفرضه حال المتلقي.

٣- قد يبدأ المتكلم بالحجج القوية

أولاً نزولاً إلى الأضعف أو العكس؛ لأن ترتيب الحجج في السلم الحجاجي والمفاضلة بينها في القوة يعود إلى رؤية المتكلم فقد تنزل الحجة الواحدة إلى أسفل السلم تبعا لوجهة نظر معينة في حين ترتقي إلى أعلاه وفقاً لوجهة نظر أخرى.

الهوامش:

١- ينظر: استراتيجيات الخطاب،عبد الهادي ظافر الشهري :٥١٢.

٢- ينظر: الحجاج والمعنى الحجاجي، بحث ضمن كتاب الاحتجاج،أحمد الطبرسي، تعليق السيد محمد باقر الخرسان :٥٨.

٣- في حجاج النص الشعري، محمد عبد الباسط عيد:٢٤.

٤- السلالم الحجاجية في شعر أحمد الوائلي، عايد جدوع حنون:٨٥.

٥- أسلوبية الحجاج التداولي،مثنى كاظم صادق :١٢٣.

٦- الجرجرة: صوت يردده البعير في حنجرته وأكثر ما يكون ذلك من الإعياء والتعب (معجم لسان العرب، ابن منظور، ج٤، ص ١٣١).

٧- جنيد: تصغير جند، متذائب: مضطرب، ومنه سمي الذئب ذئبا لاضطراب مشيته (معجم لسان العرب، ج١، ص ٣٧٨).

٨- تاريخ الطبري : م٦ / ٦٢.

٩- سفيان بن عوف بن المغفل الغامدي الأزدي قائد عسكري أرسله معاوية بن أبي سفيان للإغارة على هيت والأنبار في أيام حكم الإمام علي (عليه السلام) وقتل عامل الإمام عليها (الإصابة في تمييز الصحابة، ج٤، ص ١٠٧).

١٠- الحارث بن حسان الذهلي البكري الربعي (ت٣٦هـ) صحابي ومن الفرسان الشجعان وصاحب راية بني بكر بن وائل مع النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، وكان عامل الإمام علي (عليه السلام) على الأنبار وقتل يوم الجمل (الأعلام، خير الدين الزركلي، ج٢، ص ١٥٤).

١١- نهج البلاغة :ج١ / ٩٠.

١٢- نغب جمع نغبة وهي الجرعة من الهم (لسان العرب، ج١٤، ص ١٧٦)، والتهمام بالفتح: الهم.

١٣- اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي:٧٢.

١٤- المصدر السابق:٨٦.

١٥- وقعة صفين:٩٤.

١٦- وقعة صفين:٢٣٥.

١٧- استراتيجيات الخطاب :٤٧٢.

١٨- سورة الصف : آية ٤.

١٩- آليات الحجاج وأدواته، دراسات نظرية تطبيقية في البلاغة الجديدة،د. حافظ إسماعيل عليوي :٩٨.

٢٠- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير:٣.

٢١- نهج البلاغة : ج١/ ٩٠.

٢٢- التصوير الفني :١٠٠.

٢٣- الحجاج عند البلاغيين العرب، علي محمد علي السلمان: ١٨٧.

٢٤- السلالم الحجاجية في القصص القرآني، فايزة بوسلاح:١٢١_١٢٢.

٢٥- الطغام: هم أرذال الناس (لسان العرب، ج١٢،ص ٣٦٨)

٢٦- لهاميم: جمع لهميم بالكسر وهو السابق الجواد من الخيل والناس (لسان العرب، ج١٢، ص ٥٥٥).

٢٧- نهج البلاغة: ١/ ٢٣٣.

٢٨- تاريخ الطبري : م٦/ ٦٢.

المصادر والمراجع:

١- آليات الحجاج وأدواته،بحث ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية تطبيقية في البلاغة الجديدة، د. حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتاب الحديث، الاردن، ٢٠١٠م.

٢- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري،دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.

٣- أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، مثنى كاظم صادق، منشورات ضفاف، لبنان، ط١، ٢٠١٥م.

٤- تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤_ ٣١٠هـ)، تحقيق : إياد بن عبد اللطيف بن إبراهيم القيسي، دار ابن حزم.

٥- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٦، ٢٠٠٢م.

٦- الحجاج عند البلاغيين العرب، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، علي محمد علي السلمان.

٧- الحجاج والمعنى الحجاجي، بحث ضمن كتاب الاحتجاج، للشيخ أحمد الطبرسي، تعليق السيد محمد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الاشرف، ١٩٦٦م.

٨- السلالم الحجاجية في القصص القرآني، فايزة بو سلاح، أطروحة دكتوراه في اللسانيات، إشراف عبد الحليم بن عيسى، جامعة وهران، ٢٠١٤- ٢٠١٥.

٩- السلالم الحجاجية في شعر أحمد الوائلي، عايد جدوع حنون، صلاح جبار شناوة العبودي، مجلة أوروك، العدد ٢، المجلد ٩، ٢٠١٦م.

١٠- في حجاج النص الشعري، محمد عبد الباسط عبد،افريقيا

الشرق،المغرب، ٢٠١٣ م.

١١- اللغة والحجاج، د. أبو بكر العزاوي، الطبعة الأولى، منتديات سور الأزبكية للنشر، القاهرة، مصر، ٢٠٠٦م.

١٢- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ)، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، مصر، ١٩٦٠.

١٣- نهج البلاغة، للشريف الرضي، شرحه الشيخ محمد عبده، دار انتشارات لقاء، قم، ايران، ط١، ٢٠٠٤م.

١٤- وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري ت (٢١٢هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، ط٢، ١٣٨٢م.